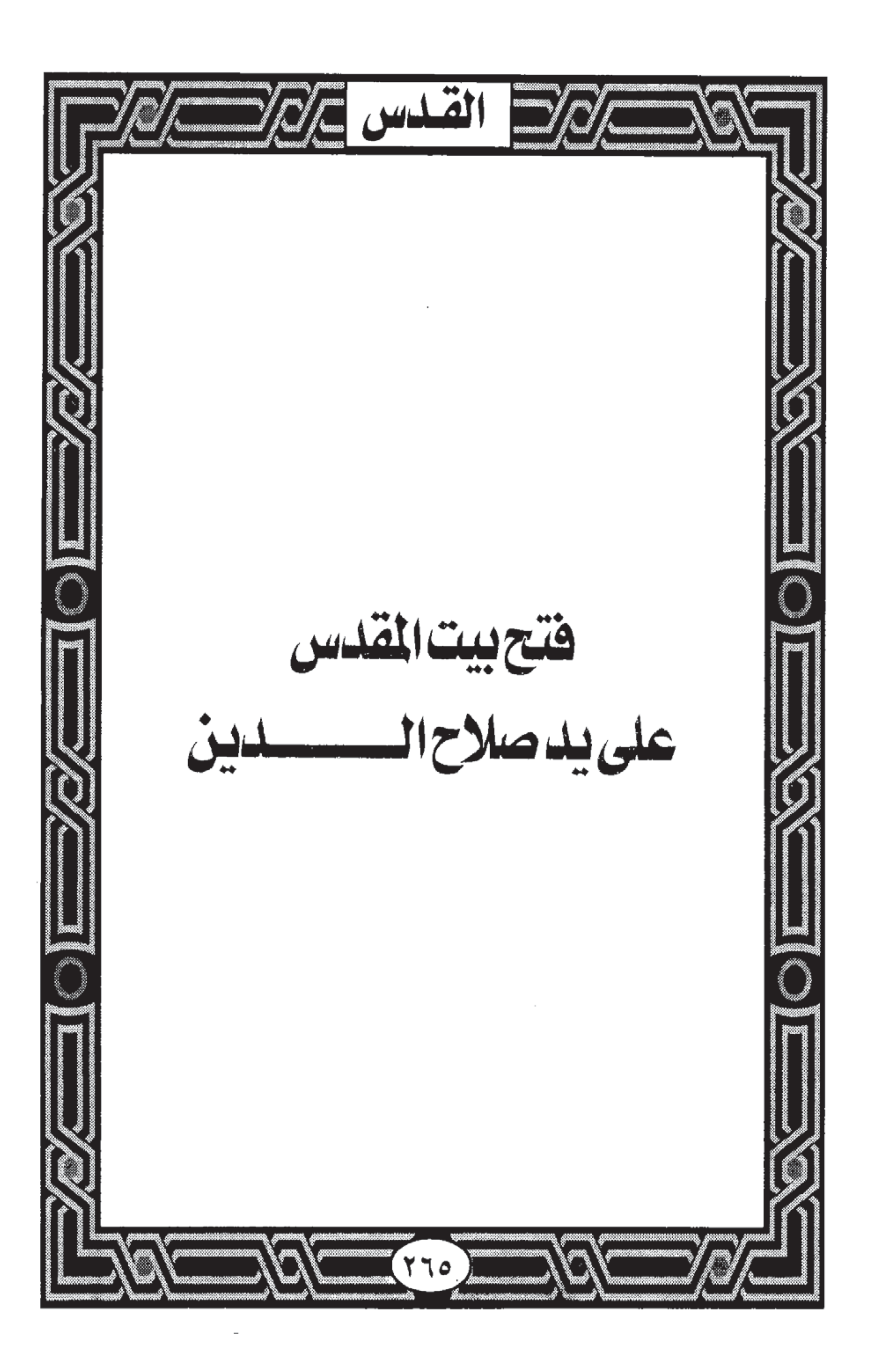


فتح بيت المقدس
على يد صلاح الـــــــدين

استعادة بيت المقدس

أفاق المسلمون من سباتهم ومن غفلتهم وبدءوا محاولاتهم لاستعادة الشام من أيدي الصليبيين. تكلمنا وأسهبنا في الحديث عن ضياع القدس، وسنسهب في الحديث عن عودتها هي وبلاد الشام، بل وعصور ما قبل الفتح التي مهدت وهيأت لعودة القدس.

ففي عام (٥٠٥هـ) تحمّس السلطان غياث الدين السلجوقي لمساعدة المسلمين في بلاد الشام، فجهز جيشًا كثيفًا برئاسة الأمير مودود ومعه من الأمراء: صاحب تبريز «سكمان القطبي»، وصاحب مراغة «أحمد بل»، والأمير إيلغازي صاحب «ماردين».

جمع مودود الجموع من أقاليم الجزيرة، وتوجه إلى الشام وانتزع من الصليبيين حصونًا كثيرة، ورجع أكثر الأمراء إلى مدنهم خوفًا من حصول أي انقلاب عليهم، ولما دخل الأمير مودود دمشق ذهب للصلاة في جامعها، فجاءه باطني بزيّ سائل فطلب منه شيئًا فأعطاه، فلما اقترب منه ضربه بسكين فمات من ساعته ـ رحمه اللَّه ـ [١].

وأرسل ملك القدس الصليبي رسالة إلى ملك دمشق يقول فيها: «إن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها، في بيت معبودها لحقيق على اللَّه أن يبيدها»[٢].

وقام العلماء بالدعوة إلى الإصلاح، وكانت جهودهم كقطرات

---

(١) «البداية والنهاية» (١٢/ ١٨٥).

(٢) وثائق الحروب الصليبية.

الماء التي تتسرّب في شقوق الأرض، ثم تتجمع وتخرج ينبوعًا صافيًا. والأمة الإسلامية - حتى في حالات ضعفها - إذا سمعت بالجهاد، ورأت من يقوم به، فإنه يهزها هزًّا، ويبعث كوامن شعورها ويستثيرها للطموح والمعالي، فعندما قدم القاضي فخر الملك أبو علي بن عمار صاحب طرابلس الشام على بغداد مستنفرًا للجهاد «سيّر الخليفة خواصه وجماعة أرباب المناصب لاستقباله، فلقوه وأنزلوه المنزل اللائق به وكذلك فعل السلطان السلجوقي، وفعل معه ما لم يفعل مع الملوك أمثاله، وهذا جميعه ثمرة الجهاد في الدنيا ولأجر الآخرة أكبر»[1].

عماد الدين زنكي واسترجاع الرها:

في عهد السلطان محمد السلجوقي تولى عماد الدين زنكي شحنة بغداد «الحامية العسكرية» ولما توفي صاحب الموصل مسعود بن البرسقي قام القاضي بهاء الدين الشهرزوري، وصلاح الدين محمد صاحب البرسقي وعرضا على السلطان أن يولي الموصل عماد الدين فوافق لما يعلمه من كفايته وشهامته. فأبان زنكي عن كفاية وحزم وبدأ مرحلة الجهاد التي آتت أكلها وأثمرت نتائجها، على يد ابنه نور الدين محمود، ثم صلاح الدين فكانا من خيرة السلاطين دينًا وشجاعة وحرصًا على الإسلام.

❑ استطاع زنكي بفترة قصيرة توحيد أكثر أقاليم الجزيرة، ثم بدأ ببلاد الشام وأخذ بعض الحصون فلما رأى الروم والفرنجة ما فعله عماد الدين قرروا حصر حلب، ولم ير زنكي منازلتهم بكثرتهم، بل نزل قريبًا منهم لمناوشتهم، وأرسل القاضي كمال الدين الشهرزوري إلى السلطان

(١) «الكامل» (١٠/ ٤٥٣).

مسعود في بغداد يخبره بالواقع ويطلب النجدة، فقال القاضي محذرًا عماد الدين من الاستعانة بعساكر السلطان: «إذا جاءت عساكر السلطان اتخذوا هذا حجة وملكوا البلاد». فقال زنكي: إن هذا العدو قد طمع فيّ وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام، وعلى كلٍّ فالمسلمون أولى بها من الكفار»[١].

وكلام زنكي يختلف عما كان عليه كثير من أمراء المدن الذين كانوا يحرصون أشد الحرص على ولايتهم ولو استعانوا بالكفار، بينما نجد أن زنكي لا يمانع من أخذ السلطان لحلب وتكون للمسلمين.

❑ وفي سنة (٥٢٢هـ) استطاع زنكي تسلم مدينة حلب، وهكذا صار الفرنجة بإزاء رجل قوي يستطيع حشد الجيوش والأموال، فلما استقر له الحال ورأى أنه قد مهد الأمور، عند ذلك قرر مجابهة الفرنجة، وبدأ بحصن «الأثارب» الذي يقع بين حلب وأنطاكية، وذلك لشدة ضرره على المسلمين، وحاصر الحصن، وخرج له الصليبيون بخيلهم ورجلهم، وكان النصر للمسلمين وهي أول وقعة معهم، وخاف أهل قلعة حارم فصالحوه، ومن هنا استدار الزمان، وقوي المسلمون بتلك الأعمال، وضعفت قوى الكافرين، وعلموا أن البلاد جاءها ما لم يكن بالحسبان وصار قصاراهم حفظ ما في أيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع[٢].

❑ وفي سنة (٥٣٢) جاء الروم بجيش عظيم ومعهم الفرنجة، واستولوا على البلاد المحيطة بحلب، ثم حصروا مدينة شيزر، فأرسل صاحبها سلطان بن منقذ الكناني يستنجد زنكي، فجاء ونزل على حماه،

---

(١) «الروضتين في أخبار الدولتين» (١/ ٣٥).

(٢) «الكامل» (١٠/ ٦٦٣).

وكل يوم يرسل السرايا يتخطف من الروم ويخـرج لهم ويقول: اخرجوا إلى الصحـراء نكتفي وهو يفعل ذلك ترهيـبًا لهم، ولكن ملك الروم آثر السلامة وانسحب إلى بلاده.

❑وفي سنة (٥٣٤) أغار زنكي على ممالك الإفرنج فاجتمعوا إليه، فلقيهم بالقـرب من حصن «بارين» وصبر المسلمون صـبرًا لم يسمع بمثله إلا مـا يحكى عن ليلة الهرير «الـقادسـية» ونصـر اللَّه المسلمين، وهرب ملوك الإفرنج، ثم تسلم حـصن «بارين» بالأمان، واستراح المسلـمون ما بين حلب وحماه من شرهم[1] . وكان في نية زنكي توحيد بلاد الجزيرة تحت قيادته حـتى يتمكن من مجابهة الأعـداء، فسار إلى بلاد الهكارية، وكانت بـيد الأكراد فـأخذها ثم بلاد آق، وكـل هذا كان تمهـيدًا للقـيام بأعظم أعماله وهو فتح «الرها».

❑ ففي سنة (٥٣٩) قرر زنكي محـاصرة هذه المدينة، وكانت تحت حكم الصليبيين ويتملكها «جوسلين»، وحـاصرها ثمانية وعشرين يومًا، ثم دخلها عنوة فـاستباحـها ونكس صلبانها، وأباد قـسوسها ورهبـانها، وعادت إلى حكم الإسلام، وهي من أشرف المدن عند النصارى، وسقطت بعدها الحصون القريبة، وأخلى الديار الجزيرية من حكم الفرنج وشرهم[2] .

لم يسـتطع زنكي إتمام هذه المرحلة فـقد قـتل وهو يحـاصر قلعـة «جعبر» التي تقع على نهر الفرات في إقليم الجزيرة.

❑ قال ابن كثير يصفه: «من خيار الملوك وأحسنهم سيرة، كان شجاعًا

---

(١) «الروضتين» (١/ ٣٤).

(٢) «الروضتين» (١/ ٣٦).

مقدامًا حازمًا»، وهو الذي بدأ بجهاد الصليبيين، وعادت الثقة إلى نفوس المسلمين ولكن التجديد الجهادي كان على يد ابنه نور الدين محمود.

نور الدين محمود زنكي

إذا ذُكرت القدس ... وكيف عادت إلى المسلمين بعد أخذ الصليبيين لها فلابد من ذكر البطلين نور الدين محمود زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، وسنطيل في ذكر عهدهما لنعرف بم تنتصر الأمم، وكيف أن استعادة القدس كان ثمرة طيبة، لشجرة طيبة، ومن ثمارهم تعرفونهم.

إذا أردنا معرفة فضل هذا السلطان وأثره وجهاده، وأنه يمثل هو وصلاح الدين التجديد الجهادي في عصرهم، لا بد أن نذكر ما قاله المؤرخ شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الشافعي الملقب بأبي شامة عندما ذكر سبب اهتمامه بتاريخ هاتين الدولتين «النورية والصلاحية»، يقول عن نور الدين: «أطربني ما رأيت من آثاره، وسمعت من أخباره مع تأخر زمانه ثم وقفت بعد ذلك على سيرة سيد الملوك بعده الناصر صلاح الدين فوجدتهما في المتأخرين كالعمرين - رضي اللَّه عنهما - في المتقدمين، فللَّه درُّهُما من ملكين تعاقبا على حسن السيرة وجميل السريرة، والفضل للمتقدم «نور الدين» فإنه أصل ذلك الخير كله، مهّد الأمور بعدله وجهاده وهيبته في جميع بلاده، ولكن صلاح الدين أكثر جهادًا وأعم بلادًا، صبر وصابر وذخر اللَّه له من الفتوح أنفسه، وهو الذي فتح الأرض المقدسة»[٢].

(١) «الروضتين» (١/ ٣٦).
(٢) «الروضتين» (١/ ٤).

ولد نور الدين سنة (٥١١) ونشأ مع والده في العراق، ثم الموصل وبلاد الشام، وبعد وفاة والده قام مقامه، وأظهر السُّنَّة في حلب وغير البدعة وقمع الرافضة، وبنى المدارس، ووقف الأوقاف، وأظهر العدل، وكان كثير المطالعة للكتب الدينية متبعًا الآثار النبوية مواظبًا على الصلوات في الجماعات عاكفًا على تلاوة القرآن، عفيف البطن والفرج، مقتصدًا في الإنفاق، متحريًّا في المطاعم والملابس، لم تسمع منه كلمة فحش[1]. قال عنه ابن الأثير: «طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وبعده إلى يومنا هذا فلم أر بعد الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة منه»[2].

ومن زهده وتقواه أنه كان لا يأكل ولا يلبس إلا من مِلْكٍ كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة، ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، وقد شكت إليه زوجته الضائقة، وزيادة النفقة فاحمر وجهه وقال: من أين أعطيها ما يكفيها، والله لا أخوض نار جهنم في هواها، ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكًا، وقد وهبتها إياها فلتأخذها[3].

روى أحد الملازمين له من أمرائه فقال: «كنت معه يومًا في الميدان بالرّها والشمس في ظهورنا فكلما سرنا تقدمنا الظل، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا فأجري فرسه وهو يلتفت وراءه، وقال لي: أتدري لأي شيء أجرى فرسي وألتفت ورائي؟ قلت: لا، قال: قد شبهت ما

(١) «الروضتين في أخبار الدولتين» (١/ ٥).
(٢) «الكامل» (١١/ ٤٠٣).
(٣) المصدر السابق (١١/ ٤٠٣).

نحن فيه بالدنيا تهرب ممن يطلبها، وتطلب من يهرب منها». قال أبوشامة: رضي اللَّه عن ملك يفكر في مثل هذا»[(١)]

وقال ابن الأثير: وكان يصلي كثيرًا من الليل، ويدعو ويستغفر، ولا يزال كذلك إلى أن يركب:

جمع الشجاعة والخشوع لربه ما أحسن المحراب في المحراب[(٢)]

وكان عارفًا بالفقه على مذهب أبي حنيفة، وليس عنده تعصب، بل الإنصاف سجيته في كل شيء، وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك اتباع سنة العدل والإنصاف، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس، فإنهم كانوا قبل ذلك كالجاهلية همة أحدهم بطنه وفرجه، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، أما عدله فإنه كان أحسن الملوك سيرة، فلم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولا مكسًا ولا عشرًا، بل أطلقها ـ رحمه اللَّه ـ جميعها في بلاد الشام والجزيرة ومصر[(٣)].

ومن عدله أنه بنى دارًا للعدل، وكان سبب بنائها أن أمراءه وقواد جيوشه تعدوا على من يجاورهم، فكثرت الشكاوى إلى القاضي كمال الدين، فأنصف بعضهم ولم يتجرأ على القائد أسد الدين شيركوه، فلما سمع نور الدين بذلك بنى هذه الدار وأحسّ أسد الدين بهذا فقال لنوابه: واللَّه لئن أحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنه، فامضوا إلى

(١) «الروضتين» (١/ ٦).
(٢) «الكامل» (١١/ ٤٠٣).
(٣) «الروضتين» (١/ ٣٤).

كل من بينكم وبينه منازعة فأرضوه وافصلوا الحال معه[١]، فقالوا: إذا فعلنا هذا فإن الناس يشتطون في الطلب، فقال: خروج أملاكي عن يدي أسهل علي من أن يراني نور الدين بعين أبيٍّ ظالم، وكان نور الدين يجلس في هذه الدار يومين في الأسبوع، فلما علم ما حصل مع أسد الدين شيركوه سجد للَّه شكرًا[٢].

وأما فعله في بلاد الإسلام من المصالح فكثير، فقد بنى أسوار مدن الشام جميعها وأحكم بناءها، وبنى المدارس بحلب وحماه ودمشق، وكان أهل الدين عنده في أعلى محل، وكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك، فقد ذكر أحد الأمراء الشيخ قطب الدين النيسابوري أمام نور الدين، فقال له السلطان: «يا هذا، الذي تتكلم عليه فله حسنة تغفر كل زلة، وهي: العلم والدين، وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، وأنا أحمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحمل سيئة هذا ـ إن صحت ـ مع وجود حسنته، على أنني واللَّه لا أصدقك فيما تقول، وإن عُدت وذكرته بسوء لأؤدبنك»[٣].

ومن عفته وتقواه أن ما كان يهدى إليه من هدايا الملوك لا يتصرف في شيء منه لا قليل ولا كثير، بل يخرجه إلى مجلس القاضي ويحصل ثمنه ويصرفه في عمارة المساجد المهجورة، وأمر الخطباء بإسقاط ألقابه في الدعاء له على المنابر، وكان كما وصفه العماد الأصفهاني: «هو الذي

---

(١) أي: أنهوا المشكلة بأي طريقة، ولو أن ترهنوا له كل ما يطلب.
(٢) «الروضتين» (١/ ٨).
(٣) «الروضتين» (١/ ٩).

أعـاد رونق الإسـلام إلى بلاد الشـام وقـد غلب الكفـر، وبلغ الضـر، فاستفتح معاقلها واستخلص عقائلها»[١] . وعندما تملَّك الموصل أمر قائد شرطتها أن لا يعمل شيئًـا إلا بالشرع الذي يأمر القاضي به، وكانوا قبله يعملون بالسـياسة[٢] ، وطلب منه أن يزيد في العقـوبات فرفض وقال: هذا زيادة في الشريعة.

العلماء في عهد نور الدين:

إن للعلماء الدور الأكبر في الإصلاح الذي يبـتغيه نور الدين، فقد أفسح لهم المجـال وقدَّرهم أكـبر التقـدير ولذلك وفد عليـه العلماء، أو طلبهم ليساعدوه في مهمته الصعبة.

□ ومن العلماء الذين تربـوا في المدرسة الشافعـية: القاضي كـمال الدين الشهرزوري محمد بن أبي محمد، وكان رسول عماد الدين زنكي إلى بغداد، ثم انتقل إلى دولة نور الدين بالشـام، وتولى تعيين القضاة، وترقى إلى درجة الوزارة وحكم في بلاد الشام، وكان فقيهًا أديبًا، شاعرًا شهمًا جسورًا، عظيم الرياسة خبيرًا في تدبير الملك[٣] .

ومنهم علي بن إبراهيم بن نجـا الواعظ الحنبلي، قدم بغداد وتفـقه بها، وسمع الحديث، ثم رجع إلى بـلده دمشق، وكان رسول نور الدين إلى بغداد عام (٥٦٤) ثم كانت له حظوة عند صلاح الدين[٤] .

---

(١) «الروضتين»(١/ ١١).
(٢) المصدر السابق (١/ ١٣).
(٣) «وفيات الأعيان» (٤/ ٣٤١).
(٤) «البداية» (١٣/ ٣٩).

ومنهم القـاضي عبـد اللَّه بن محـمد بن أبي عـصرون أحـد أئمة الشافعـية، باشر في أيام نور الدين التدريس في الغـزالية، ثم انتقل إلى حلب فبنى له نور الدين مدرسة وبحمص أخرى توفى عام (٥٨٥)[١].

والقاضي مـحي الدين محمد بـن كمال الدين الشهـرزوري قاضي حلب تفقه بالمدرسة النظامية في بغداد[٢]

جهاد نور الدين محمود:

لم يكن الجهـاد عند نور الدين حـلاً مؤقتًا، أو مصلحـة تقتضيها الظروف، بل الأصل هو الاستعداد للجهاد وغزو الكفار، فقد عاتب نور الدين السلطان قلج أرسلان السلجوقي الذي كان يحكم ملطية وسيواس، وأقصرا من بلاد الأنـاضول المجاورة للروم، عاتبه؛ لأنه يحـاول التسلط على بلاد الإسلام، ولا يقاتل الروم، وقـال له: «أنت مجاور للروم ولا تغزوهم، وبلادك قطعة كبيرة من بلاد الإسلام، ولا بد من الغزاة معي»[٣].

وفي إحدى عزمـاته لقتال الصليبيين، أرسـل إلى أخيه قطب الدين صـاحب الموصل وإلى صـاحب حـصن «كـيـفـا» وصـاحب مـاردين، فاستـجابوا له، أما صاحب حصن كـيفا فقد قـال له أصحابه: على أي شيء عزمت؟ قـال: على القعـود فإن نور الدين يلقي نفـسه والناس في المهالك[٤] فوافقوه على رأيه فلما كان الغد أمر بالتجهز للغزاة، فقال له

(١) «البداية» (١٢/ ٣٥٥).

(٢) «الروضتين» (١/ ١٨٥).

(٣) «الكامل» (١١/ ٣٩٢).

(٤) هذا منطق المنهـزمين الذين لا يرغبون في الجـهاد ويبررون لأنفـسهم القـعود، وهذا كله بسبب حب الـدنيا والتهـالك عليهـا. والدول العربيـة تبرر عدم نصـرة فلسطين بأنهم لا يستطيعون محاربة أمريكا، ولا يريدون أن تجرهم إسرائيل إلى معركة لم يعدّوا لها.

أولئك: ما عـدا مما بدا؟ فارقناك أمس عـلى حالة، فنرى اليـوم ضدها. قال: إن نور الدين قـد سلك معي طريقًا إن لم أنجـده خرج أهل بلادي عن طاعتي، فإنه قـد كاتب زهادها وعبادها يذكر لـهم ما لقي المسلمون من الفرنج ويستمد منهم الدعـاء ويطلب إليهم أن يحـثوا المسلمين على الغزاة، فقعد هؤلاء يبكون ويلعونني ويدعون عليّ، فلا بد من المسير إليه»[١].

وفي وقعة بانياس، وفتح قلعتهـا كان معه أخوه نصر الدين فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه، فلمـا رآه نور الدين قال: لو كشف لك الأجر الذي أعـد لك لتمنيت ذهاب الأخـرى، وكان مـعه في هذا الفـتح ولد «معين الدين أنر» الذي سلّم قلعـة بانياس للفرنجة، فـقال له نور الدين: للمسلمين فـرحة واحدة بهـذا الفتح ولك فرحـتان، فقـال: كيف ذاك؟ قال: لأن اليوم برّد اللّه جلد والدك من النار[٢].

فتوحات نور الدين:

من أوائل وقعاته مع الفرنجة أنه أثناء زيارة والي دمشق «معين الدين أنر» في بعلبك جاءهم كتاب من صاحب طرابلس الصليـبي يحثهم فيها على أخذ حصن الـعريمة، فاستغل نور الدين هذا الـطلب، وحاصر هو ومعين الدين الحصن وأخذاه.

❑ وفي سنة (٥٤٣) سار نور الدين إلى بصرى الشـام، وقد اجتمع فيها الفرنجة عازمين على قصد الجزء الداخلي من بلاد الشام، فالتقى بهم هناك واقتتلوا أشد القتال، ثم أنزل اللّه نصره على المسلمين وانهزم الفرنجة[٣].

---

(١) «الكامل» (١١/ ٣٠٢).
(٢) «الكامل» (١١/ ٣٠٤).
(٣) «الروضتين» (١/ ٥٥).

وفي سنة (٥٤٤) هاجم حصن حارم وخرّب ما حوله، ونهب ثم رحل عنه إلى حصن آنب ودارت معركة مع الفرنجة، انتصر فيها المسلمون وقتل فيها أمير أنطاكية، ثم سار نور الدين إلى حصن «فاميا» وحاصره وضيق عليه ثم تملكه صلحًا[١].

وفي سنة (٥٤٦) استطاع نور الدين بعد أسر «جوسلين» أحد شياطين الفرنجة، استطاع أخذ قلاع تل باشر، وعين تاب، وعزاز، ومرعش وغيرها من أعمال حلب.

وفي سنة (٥٤٩) دخلت دمشق ضمن دولته، وكان نور الدين يخطط من زمن لأخذها لأنها في طريقه إلى الصليبيين، وهي ضعيفة وحدها وإذا حاول أخذها بالقوة فإن ملكها يستجير بالصليبيين، عدا عن كره نور الدين لسفك الدماء، ولذلك تحايل على مجير الدين حتى فاجأه بهجوم سريع بعد أن كاتب أهل دمشق ليسلموها له فدخلها دون قتال يذكر، وأعطى مجير الدين مدينة حمص.

وفي سنة (٥٥٩) كان فتح حارم وهي من أعظم معارك نور الدين مع الصليبيين إذ جاء الفرنج بحدهم وحديدهم وملوكهم وفرسانهم، وكان المقدم عليهم البرنس «بيموند» صاحب أنطاكية و«قمص» صاحب طرابلس وابن جوسلين، واستطاع نور الدين جرهم إلى معركة خارج حصن حارم وانتصر عليهم انتصارًا ساحقًا ووقع كل الأمراء والملوك أسرى بين يديه.

وفي سنة (٥٦٠) فتح حصن المنيطرة وغنم فيه مغانم كثيرة.

---

(١) «الروضتين»(١/ ٥٨).

◻ وفي سنة (٥٦٢) تملك نور الدين صافيتا والعريمة.

توحيد مصر والشام:

لم يغب عن بال السلطان محمود أن توحيد بلاد الشام ومصر من أقوى الأسباب للوقوف في وجه الصليبيين، وجاءت الفرصة المناسبة عندما استجار به وزير العبيدين في مصر شاور السعدي، وذلك لمساعدته في إرجاع منصب الوزارة الذي فقده، بادر نور الدين للإجابة، وأرسل جيشًا بقيادة أسد الدين شيركوه على أن يكون لنور الدين ثلث دخل مصر، دخل جيش نور الدين القاهرة، وأعاد شاور للوزارة، ولكن شاور غدر ما عاهد عليه، وطلب من أسد الدين مغادرة مصر واستنجد بالصليبيين الذين وجدوها فرصة فاضطر أسد الدين للانسحاب دون خسائر، وفي نيته العودة لمصر لتأديب شاور.

◻ وفي عام (٥٦٢) كان أسد الدين قد أكمل الاستعدادات وجدّ في السير فوصل مصر وعسكر غربي القاهرة، فالتقى مع المصريين يساعدهم الفرنجة، وهزمهم شر هزيمة، وليس معه إلا ألفان من الفرسان، ثم إن المصريين بذلوا له الأموال للصلح فوافق ورجع للشام، وكان الفرنجة في هذه المرة قد تمكنوا من شاور وحكومته وشرطوا شروطًا منها: أن يكون لهم حامية في القاهرة، فتحكموا في المسلمين واستدعوا الصليبيين من فلسطين لأخذ مصر، فاشتد خوف نور الدين أن يأخذ الكفار مصر، فتجهز أسد الدين للمرة الثالثة، وأخذ معه ابن أخيه صلاح الدين وهو كاره لذلك، ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ، وكان شاور قد أرضى الصليبيين بالمال ليعودوا عن مصر، فاستجابوا له، ولكن أسد

الدين كان قد عـزم هذه المرة أن يستقر بمصـر وبدأ شاور يماطل، ويعمل الحيل لإبعـاد جيش نور الدين، وقرر القبض على أسـد الدين وأمرائه، فأشار عليه ابنه «الكامل» بألا يفعل، فقال له شاور: لئن لم أفعل لنقتلن جميعًا، قال الابن: لأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية خير من أن نقتل وقـد ملكها الفرنج، ولكن شـاور أصر على غدره، وشعـر به قواد أسد فاتفقوا على قتله واستراحوا منه واستراحت مصر منه أيضًا، وأصبح أسد الدين وزيرًا للدولة المصرية العبيدية، وكان آخر ملوكها العاضد ليس له من الأمر شيء. فكانـت وزارة شيركوه أول خـطوة على طريق إعادة مصـر إلى السنة، وبعد شـهرين من وزارته توفي ـ رحمـه اللَّه ـ وتولى بعده ابن اخيـه صلاح الدين، وهو الذي أزال الدولة العبيـدية بعد إلحاح من نور الدين بأن يقطع الخطبـة للعاضـد، ويخطب للخليـفة العـباسي وصلاح الدين يعـتذر خوفًـا من أهل مصر، ولـكن عندما استـجاب لم يخالـفه أحد ولم ينـتطح فيهـا عنزان، وهكذا كـان إرجاع مصـر للسنة وتوحيدها مع بلاد الشام من خطوات الجهاد المباركة التي بدأها نور الدين ـ رحمه اللَّه ـ وأكمل هذه الخطوات السلطان المجاهد صلاح الدين.

إن فكرة الوحدة بين الأقطار ـ الإسلامية ـ ولو كانت مبدئيًّا بين الأقطار المتجـاورة ـ من أعظم الخطوات في مواجـهة الأخطار الخارجـية والداخلية، خاصة إذا قامت هذه الوحدة على أسس سليمة، والبديل عن الوحدة هو التـمزق وإثارة الإقليميـات الضيقة، وإذا كـانت الوحدة بين المسلمين مطلبًـا شـرعيًّـا، فإنهم بحاجة إليهـا هذه الأيام أكثر مما سبق، فالعـالم كله يتكتل كي ينافس ويقـوى على التحديـات، فكيف إذا كان

العالم الإسلامي غارقًا في المشاكل الإقتصادية والاجتماعية. وفي واقعنا الآن لا تتأتي هذه الوحدة إلا إذا سبقتها وحدة الدعاة المخلصين، لأنهم هم الأجدر بإقامة الوحدة بعدئذ، وأما غيرهم ففي دعوته للوحدة شوائب وأكدار...

* وقفات مع نور الدين محمود بن زنكي:

□ يرحم اللَّه ذلك الجبل الشامخ القائل:

«إذا كان معي ألف فارس لا أبالي بأعدائي قلّوا أم كثروا. واللَّه لا أستظل بجدار حتى آخذ بثأر الإسلام وثأري»(١).

«ذكر أبو شامة في كتابه «الروضتين»: «أنه جاء إلى السلطان نور الدين ذات يوم جماعة من العلماء... وقال قائلهم: أيها السلطان نطبب إليك أن تبتسم، فسألهم السلطان: وعلام الابتسام؟ فقال الرجل: جئنا إليك أيها السلطان نروي عليك بسندنا المتصل إلى الرسول ﷺ حديثًا مسلسلاً قاله الرسول، وهو يبتسم، ومن شروط الحديث المسلسل أن يفعل راويه مثلما كان يفعل الرسول ﷺ وهو يحدث به، فالتفت إليهم السلطان، والأسى يكاد يفطر فؤاده، وقال: كيف أبتسم أيها القوم، والمسجد الأقصى المبارك في بيت المقدس، راسف في قيود الذل والهوان تحت سنابك خيل الأعداء؟».

(١) «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية» لابن الأثير ص(١١٧ ـ ١١٨)، و«الكامل» (١١/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥)، و«مرآة الزمان في تاريخ الأعيان» لسبط ابن الجوزي (٨/ ٢٢٤).

وقـد دأب نور الدين على إرسـال الفـدائيين للإغـارة على أطراف مملكة القدس الفـرنجية، ومما هو جدير بالإشارة إلـيه في هذا الصدد، أن أحد الباحـثين ـ الأجانب ـ عن الآثار عثر على صهـريج قديم في منطقة وادي الجوز بالقدس، بداخله كتابات لم يـستطع أن يقرأها، فحُوِّلت إلى العالم «ماكس فان برشم» فقرأ فيـها أسماء أشخاص تلت كل اسم منهم عبارة: «خرج وهو يسأل اللَّه الشهادة».

وقد أكّـد «عادل جبـر» ـ أحد علماء فلسـطين ـ بعد أن زار المكان وقرأ الكتابات أن الأسماء هي أسماء الأبطال من رجال نور الدين زنكي، كان يبعث بهم ليجمعوا له المعلومات عن أحوال العدو، وكان نور الدين على ثقـة تامة من اسـترجـاع القدس، حـتى أمر بصنع منبـر في حلب للمسجد الأقصى سنة ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م.

* منبر نور الدين محمود بن زنكي:

ولا ريب أن التفكير في إعداد المنبر من قِـبل نور الدين واستحضار أمهـر المهندسين والخبراء لإعـداده وقضاء عـدة سنين في ذلك يدل على تصميـم نور الدين في إعداد العدة لإنقاذ القـدس، وهو موقف نابع من شـعوره الإسـلامي في عدم جـواز السكوت على القـدس خارجـة عن السيادة الإسلامية»[1].

(١) مجلة القدس العـدد ٦ ـ صفر ١٤٢٠ هـ مقال: «منبر نور الدين بالقـدس» نبوءة بالعزيمة غدت حقيقة ـ بقلم فيصل الخيري.

إن عـددًا من أشـهر الصناع المـهندسين في مـدينة حلب بدءوا في إعداد المنبـر بأمر نور الدين واستمـروا في صنعه عدة سنين، حـتى جاء تحفة فريـدة من نوعها من حيث الدقة والجمـال والزخرفة. لم يكن هذا المنبر مفخرة الأقصى فـحسب، بل مفخرة الحرم كله، لا بل إن فلسطين أو حتى سورية كلها كانت تفتخـر به. وإن حضارة القرن العشرين تعجز عن صنع مثـيل له، فهو مصنوع من الخـشب الثمين ـ الأَرْز والأبنوس ـ ومطعَّم بالعاج والصدف، فـيه لوحات صغيـرة زخرفتها أنيـقة، ولفائف وأوراق صغيرة ونخيل صغير، توفق بينها أنماط خفيفة ذات فن هندسي، ويقـال بأن هؤلاء الصناع حرصـوا على إتمام المنبـر من أوله إلى آخـره، دون أن يدخلوا فـيه أي مسـمار أو أي مـادة غيـر الخشب الثـمين، وقد أعـجب به رواة الأخـبار من أهل الـعصـور الوسطى ـ المتـقـدمين منهم والمتأخـرين ـ أكثر من إعـجابهم بأي شيء مصـنوع من الخشب في هذا الجزء من العـالم، غير أن المنيـة عاجلت نور الدين قـبل تحقيق أمنيـته، فـمـات والمنبـر في طور الإعداد، فـلما تولـى السلطان الملك الصـالح إسماعيل، تابع ما كان أبوه قد بدأه حتى أتمه نهـائيًّا في أيامـه، أي في حوالي سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م.

◻ ولما دخل صلاح الدين القدس فاتحًا أمر بأن يُعمل له منبر، فقيل له: «إن نور الدين مـحمـودًا كان قـد عمل بـحلب منبرًا، أمـر الصُنّاع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه، قـال: هذا قد عملناه لينصب ببيت المقدس،

فأمر صلاح الدين بإحضاره، فحمل من حلب ونُصِب بالقدس، وكان بين عمل المنبر وحمله عشرين سنة، وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده ـ رحمه اللَّه ـ».

□ قال أبو شامة: «قال العماد: لما فتحنا القدس أمر بتعمير المحراب وترخيمه، وتكميل حُسنه وتتميمه، ووَضْع منبر رسمي في أول يوم قضي فيه الفرض، واحتيج بعد ذلك إلى منبر حسن رائق، بحسنه لائق، وبجماله شائق، وبكماله فائق، فذكر السلطان المنبر الذي أنشأه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي ـ رحمه اللَّه ـ لبيت المقدس قبل فتحه بنيِّف وعشرين سنة، وأودعه له من ذخائره عند اللَّه حَسَنَة، فأمر أن يكتب إلى حلب ويُطلب، فحُمِل وعُمِل على ما أمر به وامتثل، فجاء كالروض النضير، والوشي الحبير، عديم النظير.

وكان من حديث إحداثه، ما ألهم اللَّه نور الدين ـ رحمه اللَّه ـ لارتياح خاطره إليه وانبعاثه، وقد أوقع في رُوعه، من النور الفائض من ينبوع ضلوعه، أن البيت المقدس بعده سيُفتح، وأن صدور المسلمين الحَرِجة لأجله ستُشرح، وهو من أولياء اللَّه المُلْهَمين، وعباده المُحَدَّثين المُكْرَمين، وكان بحلب نجّار يعرف بالأختريني من ضيعةٍ تُعرف بأخترين، لم يُلْفَ له في براعته وصناعته قرين، فأمره نور الدين بعمل منبر لبيت اللَّه المقدّس، وقال له: اجتهد أن تأتي به على النّعْت المُهَنْدم والنَّحتِ المهندس. فجمع الصنّاع، وأحسن الإبداع، وأتمّه في سنين، واستحقّ بحسن إحسانه التحسين، والناس يقولون: هذا أمر مستحيل، وحُكم ما

له دليل، وذِكْر جميل، وأجر جزيل لو كان إليه سبيل، وهيهات أن يعود القدس إلى الإسلام، ويقضي الإصباح فيه على الإظلام، فإن الفرنج مستولون مستعلون، ويكثرون على الأيام ولا يقلُّون، أما ناصفونا على أكثر أعمال حوران، وقابلوا الكفر بالإيمان! وقد أعجزوا ملوك الإسلام إلى اليوم، فما أصعب وأتعب وَقْم[1] القوم. ويقول من له قوة اليقين، وعرف أن اللَّه كافل بنصره الدين: اصبروا، فَلِسرٍّ هذه الأمة نبأ، وهو كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ﴾ [هود: ٣٨].

ولم يزل لنور الدين في قلبه من الدين نور، وأثر تقواه للمتقين مأثور، أزهد العباد، وأعبد الزهاد، ومن الأولياء الأبرار، والأتقياء الأخيار، وقد نظر بنور الفراسة أن الفتح قريب، وأن اللَّه لدعائه ولو بعد وفاته مجيب، ويزيد قوة عزمه جدًّا، وتمدّه بحياء الحياة الربانية مدًّا، قد طهّره اللَّه من العيب، ونزّهه من الرَّيب لنقاء الجيب، وشملت الإسلام بعده بركته، وخُتِمت بافتتاح مُلْكِ صلاح الدين مملكته، وهو الذي ربّاه ولبّاه، وأحبّه وحباه، وهو الذي سنّ الفتح، وسنّى النُّجْح.

ولما فتح السلطان القدس تقدّم بحمله، وصَحّ به في محراب الأقصى اجتماع شمله، وظهر سرّ الكرامة في فوز الإسلام بالسلامة، وتناصرت الألسن بالدعاء لنور الدين بالرحمة، ولصلاح الدين بالنُّصْرة والنِّعمة.

---

(١) الوقم: القهر.

❑ وقال العماد في موضع آخر من كتاب «البرق»: وكان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي ـ رحمه اللَّه ـ في عهده عَرَف بنور فراسته فتح البيت المقدس من بعده، فأمر في حلب باتخاذ منبر للقدس، تَعِب النجّارون والصُّنَّاع والمهندسون فيه سنين، وأبدعوا في تركيبه الإحكام والتزيين، وأنفق في إبداع محاسنه وإبداء مزاينه أُلوفًا، وكان لترديد النظر فيه على الأيام ألوفًا، وبقي ذلك المنبر بجامع حلب منصوبًا، سيفًا في صِوَان الحِفظ مقروبًا، حتى أمر السلطان في هذا الوقت بالوفاء بالنَّذْر النوري، ونقْل المنبر إلى موضعه القدْسي، فعُرفت بذلك كرامات نور الدين، التي أشرق نورها بعده بسنين، وكان من المحسنين الذين قال اللَّه تعالى فيهم: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

❑ قال أبو شامة: وهذا الذي نسبه إلى نور الدين ـ رحمه اللَّه ـ من أنّه كرامة من كراماته لائق بمحله ومنزلته من الدِّين، وليس بالبعيد من مثل ذلك.

وكان ـ رحمه اللَّه ـ قد بَدَتْ له مخايل ذلك بما تسنّى له من فتح البلاد الشامية والمصرية، وقهر العدو بين يديه مرارًا، وكان فتح القدْس في همته من أول مُلْكه، فإن لم يكن حَصَل له مباشرة فقد حصل له تسبُّبا، فإن الفاتحين له ـ رحمهم اللَّه ـ بَنَوْا على ما أسَّسه لهم من المُلك والتدبير، وهم أمراؤه وأتباعه وأجناده وأشياعه»[1].

وقد صنع هذا المنبر: ابن ظافر الحلبي، وسليمان بن معالي،

---

(١) كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين» (٣/ ٣٩٢ ـ ٣٩٤).

وحميد بن ظافر، وفضايل وأبو الحسن ولدا يحيى الحلبي ـ رحمهم اللَّه ـ.

ولقد ظلّ هذا المنبر الرائع بالمسجد الأقصى حتى التهمه حريق الأقصى بتدبير اليهود يوم الخميس ٨ من جمادى الآخر سنة ١٣٨٩هـ/ ٢١ أغسطس سنة ١٩٦٩م.

صلاح الدين يوسف بن أيوب

في أجواء الجهاد الذي أقامه نور الدين محمود وفي أجواء الجد والإصلاح وإعادة دور العلماء في التوجيه والمشاركة. في هذه الأجواء وجد صلاح الدين نفسه في موقع المسؤولية بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه وزيراً لآخر ملوك الدولة العبيدية في القاهرة «العاضد» الذي رغب في أن يكون صلاح الدين وزيراً له لأنه ظن فيه الضعف، ويستطيع الاستفادة من الجيش الذي معه لحماية مصر، ولكن الأمور جاءت على غير ما يحتسب، فقد شمر صلاح الدين عن ساعد الجد «وترك اللهو، وتقمّص بلباس الدين، وحفظ ناموس الشرع» [1] وكشف هذه المسؤولية التي ألزمها عن شخصية فريدة، ومعدن أصيل فحمل هموم المسلمين والإسلام، ولم يهدأ له بال، ولم يذق طعم الراحة حتى لقي ربه.

ونحن هنا لا نؤرخ للدولة الأيوبية، وإنما نذكر أثر هذا الجو الجهادي في شخصية صلاح الدين، وكيف هيأ له رجالاً من العلماء، والقادة العسكريين مما أعانه على مهمته الكبيرة.

---

(١) «الروضتين» (١/ ١٧٣).

بعض أعمال صلاح الدين:

١ ـ إرجاع مصر إلى السنة:

عزل صلاح الدين قضاة مصر لأنهم كانوا شيعة، وولى رئيسًا للقضاة: عبد الملك بن درباس الشافعي، كما قطع الأذان بـ«حي على خير العمل» وأقام الخطبة للخليفة العباسي بعد أن انقطعت الخطبة للعباسيين بمصر (٢٠٨) سنة، وقد بشر نور الدين محمود الخليفة العباسي بذلك، وفرح الناس ونظم العماد الأصفهاني في هذه المناسبة:

توفي العاضد الدعيّ فما يفتح ذو بدعة بمصر فما
وعصر فرعونها انقضى وغدا يوسفها في الأمور محتكما
وصار شمل الصلاح ملتئمًا بها وعقد السداد منتظمًا

٢ ـ توحيد بلاد الشام ومصر:

بعد وفاة نور الدين ـ رحمه اللَّه ـ واضطراب بلاد الشام جاء صلاح الدين فاستلم دمشق ثم حمص وحماه، وحاصر مدينة حلب، ولكن المتنفذين فيها الأوصياء على ابن نور الدين «إسماعيل» لصغر سنه طلبوا المساعدة من الشعب، ويبدو أن قسمًا كبيرًا من هذا الشعب كان يحن إلى التشيع الذي أبطله نور الدين، فاشترطوا للمساعدة العمل بأقوالهم وأفعالهم، فاستجاب زعماء المدينة لهذا الشرط ولم يكتفوا بهذا، فعندما رأوا قوة صلاح الدين واستمراره في الحصار طلبوا المساعدة من الحشاشين الإسماعيلية الذين اتخذوا من مدينة «بانياس» مقرًّا لهم. فحاول هؤلاء ـ على طريقتهم ـ اغتيال صلاح الدين، ولكن اللَّه نجاه منهم، وترك

(١) «الروضتين» (١/ ١٧٣).

حصار حلب فترة ثم رجع لها مرة أخرى، وحاول الحشاشون اغتياله للمرة الثانية ففشلوا، وقتل من جاء منهم لهذه العملية والذين يسمونهم «الفداوية» ولم يكتف أهل حلب بذلك بل استعانوا بصاحب طرابلس الصليبي، فلم يهتم به صلاح الدين، وأرسل كتيبة تناوشه عند حمص(١) .

ومع ذلك فقد تراجع صلاح الدين عن حلب مؤثرًا عدم الدخول في حرب طاحنة مع أهلها، خاصة وأنهم طلبوا الصلح، وشفعوا في ذلك بابن نور الدين محمود، ولكن نية السلطان لا تزال في توحيد بلاد الشام ومصر حتى تقوى على الوقوف في وجه العدو، وأثناء هذا أراد قطع دابر الفساد وضرب «الحشاشين» فهاجمهم في عقر دارهم، وقتل منهم وسبى، ولكن خاله شهاب الدين الحارمي صاحب حماه شفع بهم فقبل السلطان شفاعته(٢) . ولم يتمكن صلاح الدين من ضم حلب إلا بعد وفاة ابن نور الدين واختلاف أقاربه بعده، فسلموها للسلطان وبذلك يكون قد اطمأن إلى القاعدة الأساسية الراسخة للصدام مع الصليبيين.

كما قال القاضي ابن شداد: «لما تحقق صلاح الدين وفاة نور الدين وكون ولده طفلاً لا ينهض بأعباء الملك ولا يستقل بدفع عدو اللَّه عن البلاد، تجهز للخروج إلى الشام إذ هو أصل بلاد الإسلام»(٣) ، ومع

(١) هذه من المصائب التي ابُتلي بها المسلمون، وهي استعانة بعض الأمراء بأعداء اللَّه كي تبقى لهم السلطة والسيطرة على مدينة واحدة. وهذا هو حال المجتمع عندما تسيطر عليه الأنانية والأهواء وخسّة الطباع، وهو راجع إلى تدهور الحالة الأخلاقية وضعف الوازع الديني، وليس في الأذهان أي مشروع حضاري.

(٢) تتكرر هذه الشفاعات في عدم استئصال الباطنيين في بلاد الشام في عهد الدولة العثمانية ومن بعدها، وهذه غفلة من أهل السنة ناتجة عن طيب قلوبهم.

(٣) «الروضتين» (١/ ٢٣٦).

ذلك فلم يترك صلاح الدين الجهاد في هذه الفترة بل اصطدم مع الصليبيين في عدة معارك مثل «مرج عيون» وغيرها، ولكنه لم يكن مطمئنًّا إلى الصدام الكامل مع الفرنجة.

جهاده:

استقر الأمر لصلاح الدين في مصر والشام وكثير من مدن إقليم الجزيرة، وقد مرض في إحدى حملاته على إقليم الجزيرة، فنذر لئن شفاه اللَّه ليصرفن كل همه لقتال الفرنجة وفتح بيت المقدس، وليقتلن «صاحب الكرك» الصليبي بيده، وكان هذا النذر بإشارة من وزيره القاضي الفاضل[١].

بعد هذا بدأ بحملات مركزة على المدن القريبة قبل أن يظفره اللَّه بالفتح الأعظم، وهو استرجاع بيت المقدس فقد انتصر على الفرنجة في موقعة «مرج عيون» سنة ٥٧٥هـ وموقعة «بانياس» وأسر رؤساءهم ودمر حصن الأحزان في صفد، وما زال يناوش الفرنجة حصنًا بعد حصن حتى تجمع عنده جيش كبير في سهل حطين حيث كانت الموقعة الكبرى.

حطين مقبرة للصليبيين مهدت لفتح القدس:

هو للمسلمين يوم النصرة، وللفرنج يوم الكسرة، مُلِك عليهم صليب الصلبوت، وتم أسر ملوكهم: الملك جفري، والبرنس أرناط، وأخي الملك جفري، و«أوك» صاحب جُبيل، و«هنفرى بن هنفرى»، وابن صاحب إسكندرونة صاحب مَرَقية، وأسر الشيطان وجنوده، وملك

(١) «عيون الروضتين» (١/ ٣٦).

الملك وكنوده «فـمن شاهد القـتلى، قـال: ما هناك أسـير، ومن عـاين الأسرى، قال: مـا هناك قتيل. ومُذ استولى الفـرنج على ساحل الشام، ما شُـفي للمسلمين كـيوم حطين غليل، فمـا أفلت من تلك الآلاف إلا آحاد، وما نجا من أولئك الأعداء إلا أعداد».

وقال ابن كثـير في «البداية والنهايـة» (١٢/ ٣٤٢): «كان النصر من اللَّه عز وجـلّ، فمنحهم اللَّه أكـتافـهم، فقُتل منهم ثـلاثون ألفًا في ذلك اليوم، وأُسر ثلاثون ألفًا من شجعـانهم وفرسانهم، وكان في جملة من أُسر جميع ملوكهم، سوى «قومس» طرابلس؛ فإنهم انهزموا في أول المعركـة، واستلبـهم السلطان صليبـهم الأعظم، وهو الذي يزعـمون أنه صُلِب عليه المصلوب، وقـد غلّفوه بالذهب واللآلئ والجواهر النفـيسة، ولم يُسمع بمثل هذا الـيوم في عزّ الإسلام وأهـله، ودَمْغِ الباطل وأهله، حتى ذُكـر أن بعض الفلاحين رآه بعـضهم يقود نيّـفًا وثلاثين أسـيرًا من الفرنج، وقد ربطهم بطُنب خـيمة، وباع بعضهم أسيرًا بنعـل ليلبسها في رجله، وجرت أمور لم يُسمع بمثلها إلا في زمن الصحابة والتابعين، فللَّه الحمد دائمًا كثيرًا، طيّبًا مباركًا».

وقال العـماد: «ولقـد رأيت في الحبل الواحـد ثلاثين أو أربعين يقودهم فارس، وفي بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس».

وبلغ ثمن الأسـير بدمـشق ثلاثة دنانـير، ويباع الرجـل وزوجتـه وأولاده في النداء بيعة واحدة».

وكان من الأسرى صاحب الكرك «أرناط» الذي كان يُؤذي الحجاج وفي نيتـه احتلال المدينة النبـوية، فقتله صـلاح الدين بيده ووفى بنذره،

وقتل كل «الداوية»، و«الأسبارتية» لأنهم من شياطين الصليبيين وأشدهم عداوة.

السلطان الناصر يوسف يُخرج بلاد الحق فلسطين من سجنها ويحررها:

لقد فتح صلاح الدين بعد كسره حطين، وقبل فتح بيت المقدس، أكثر من خمسين بلدة ومدينة، فتح طبرية ثاني يوم الكسرة.

❑ قال القاضي بهاء الدين بن شداد: «ثم رحل السلطان طالبًا عكّا فقاتلها بكرة الخميس مستهل جمادى الأول، فأخذها واستنفذ من كان بها من الأسارى، وكانوا زهاء أربعة آلاف نفس، واستولى على ما فيها من الذخائر والأموال، والتجائر والبضائع؛ فإنها كانت مظنّة التجار، وتفرّقت العساكر في بلاد الساحل، يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة، فأخذوا نابلس وحيفا وقيسارية، وصفورية، والناصرة، وكان ذلك لخلوّ الرجال بالقتل والأسر.

❑ وقال العماد: خرج أهل البلد ـ يعني عكّا ـ يطلبون الأمان، فأمّنهم على أنفسهم فقط، وفتحوا البلد يوم الجمعة، فجئنا إلى كنيستها العظمى، فرتّب بها المنبر والقبلة، وهي أول جمعة أُقيمت بالساحل بعد يوم الفتح(١)، وفتح العادل حصن «مسجد يابا» ومدينة «يافا» عنوة. وفُتحت «الفولة»، وهي قلعة للداوية حصينة، وفيها ذخائرهم وأموالهم، وفُتحت «دبوريّة»، و«جنين»، و«زرعين»، و«الطور»، و«اللّجون»، و«بيْسان»، و«القيمون»، و«مالعكا»، و«طبرية» من الولايات، و«الزيب»

(١) بعد غياب اثنتين وسبعين سنة.

و«معليا»، و«البعنة»، و«إسكندرونة»، و«منواث»، و«أرسوف»، واستولى على تلك الشموس والأقمار الكسوف والخسوف، وفتح المسلمون «سبيطية»، وفيها مشهد زكريا ـ عليه السلام ـ، وقد اتخذه «الأقسا» كنيسة، وقد حجبوه وحلّوه، ففتح للمسلمين أبوابه، وأظهر للمصلّين محرابه. وأرسل السلطان إلى «تبنين» ابن أخيه تقي الدين فضايقها، فراسلوا السلطان وسألوه الأمان، واستمهلوا خمسة أيام، فأُمْهِلوا، وأطَلَقوا أسارى المسلمين، وهذا دأبه في كل بلد يفتحه؛ أنه يبدأ بالأسارى فيفك قيودها، ويُعيد بعد عدمها وجودها، فخلص ـ تلك السنة ـ من الأسر أكثر من عشرين ألف أسير، ووقع في أسره من الكفار مائة ألف، ثم تسلم السلطان بعد «تبنين» «صيدا»، و«صرفند»، و«بيروت»، و«جبيل»، وكان صاحب جُبيل في الأسر فسلّمها وسَلم، وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجُبيل ونابلس مسلمين، فذاقوا العزة بعد الذلة، ورفع المسلمون رءوسهم، وعرفوا نفوسهم، وكان كلّ من استأمن من الكفار يمضي إلى صور مَحْمِي الذّمار.

ونزل السلطان على عسقلان فحاصرها، وتردّدت مراسلات بين أهلها والملك، ثم سلموها يوم السبت سلْخ جمادى الآخرة، وخرجوا بنسائهم وأموالهم، وكان السلطان أخذ في طريقه إليها «الرملة»، و«تبنين»، و«بيت لحم»، و«الخليل»، وأقام بها حتى تسلَّم حصون «الداوية، وغزة، والنطرون، وبيت جبريل، و لدّ، والداروم، ولم يبق في الساحل من جُبيل إلى أوائل حدود مصر سوى القدس وصور.

وكان السلطان ـ رحمه اللّه ـ قد إستدعى الأساطيل من مصر،

فجاءت مع مقدّمها الحاجب لؤلؤ فطفق يكسر ويكسب، ويسلّ ويسلب، ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه، ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه(١) .

ثم كان فتح بيت القدس، وسنفرد له فصلاً مطوّلاً. ولم يستقر في القدس إلا قليلاً، ثم بدأ جولة من الفتوحات، فأتم فتح صيدا وبيروت، وجبلة، واللاذقية، وحصن صهيون، وحصن بغراس، ورجع بعدها إلى صفد والكرك ففتحها، ثم قلعة الشقيف.

وفي ردة فعل صليبية شديدة حاولوا استرجاع عكا، فحاصروها من جهة البحر، فأسرع السلطان إليها ووقف بإزائهم، فكانت الإمدادات تأتي الصليبيين من جهة البحر بشكل دائم فاضطر السلطان والمسلمون لمصابرتهم ستة وثلاثين شهرًا «رجب ٥٨٥ ـ شعبان ٥٨٨» وفي هذا الحصار ظهرت شخصية صلاح الدين العظيمة، ثلاث سنوات وهو في حالة قتال وتأهب واستعداد.

❑ قال ابن شداد: «وكان ـ رحمه اللّه ـ من عظماء الشجعان، قوي النفس شديد البأس، لا يهوله أمر ولقد وصل في ليلة واحدة من الإفرنج نيف وسبعون مركبًا على عكا، وأنا أعدها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس، وهو لا يزداد إلا قوة نفس»(٢)

وخلال هذا الحصار الطويل جرت وقعات كبيرة بينه وبين الفرنجة، وانتصر فيها، ولكن الإمدادات كانت تتوالى من أوربا عن طريق البحر،

(١) «عيون الروضتين» (٢/١٤٨ ـ ١٥٢).
(٢) «الروضتين» (٢/ ٢٢٠).

وصابر الفريقان مصابرة عجيبة، وكان القتال يتم يوميًّا أحيانًا وفي البر والبحر، وفي هذا الحصار استنجد صلاح الدين بملك المغرب أمير دولة الموحدين، فرفض المساعدة لأنه لم يذكر في رسالته «أمير المؤمنين»!!

وفي نهاية هذه المعاناة مرض السلطان، واضطر للصلح مع الإفرنج، وأخذوا عكا مرة ثانية، وحاولوا أخذ يافا ولكنهم لم يفلحوا، وعاد السلطان إلى القدس يرتب أمورها ويصلح من سورها، وكان ـ رحمه اللَّه ـ يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة، فيقتدي به العسكر[1] .

عاد بعد هذا الغياب الطويل عن العاصمة دمشق وفي نيته التهيؤ للحج، ولم يتيسر له، وفي نيته استمرار الجهاد وملاحقة الصليبيين في ديارهم، ولكن عاجلته المنيَّة عن تحقيق هذه الرغبة، وتوفي ـ رحمه اللَّه ـ في دمشق في السابع والعشرين من صفر سنة (٥٨٩هـ).

شغفه بالجهاد:

قال القاضي ابن شداد: «وكان ـ رحمه اللَّه ـ شديد المواظبة على الجهاد، عظيم الاهتمام به، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد دينارًا ولا درهمًا إلا في الجهاد وفي الأرفاد لصدق وبرّ في يمينه، ولقد كان الجهاد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيمًا، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته، ولا اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه، ولقد هجر في محبته

---

(١) ابن الأثير: «الكامل» (١٢/ ٧٤).

الجهاد أهله وولده ووطنه وسكنه، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد، وقد ألف له كتب عدة في الجهاد وأنا ممن جمع له كتابًا جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه، وكل حديث، ولقد سرنا مع السلطان على الساحل طالبي عكا، وكان الزمان شتاء عظيمًا، والبحر هائجًا وموجه كالجبال، وكنت حديث عهد برؤية البحر فعظم عندي، واستخففت رأي من يركب البحر، فبينا أنا في ذلك إذ التفت إليّ وقال في نفسه: إنه متى يسر اللَّه تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد، وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم، أتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر باللَّه أو أموت، فعظم وقع هذا الكلام عندي وحكيت له ما خطر لي، فانظر إلى هذه الطوية ما أطهرها، وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجسرها. اللَّهم إنك تعلم أنه بذل جهده في نصرة دينك رجاء رحمتك فارحمه، وأما صبره فلقد رأيته بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبته بحيث لا يستطيع الجلوس، وكان مع ذلك يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر، وهو صابر على شدة الألم ويقول: «إذا ركبت يزول عني ألمها حتى أنزل»[(١)].

ويكتب للخليفة العباسي: وهذه المقاصد الثلاثة: الجهاد في سبيل اللَّه، والكف عن مظالم عباد اللَّه، والطاعة للخليفة هي مراد الخادم من البلاد إذا فتحها، واللَّه العالم أنه لا يقاتل لعيش ألين من عيش، ولا

(١) «الروضتين» (٢/ ٢٢١ ـ ٢٢٢).

لغضب يملأ العيان»[١] .

وقد ذكرنا كيف أنه كان ينقل الحجارة بنفسه لعمارة سور القدس، ولو رأيته وهو يحمل حجرًا في حجره لعلمت أن له قلبًا قد حمل جبلاً في فكره[٢] . وعندما رجع إلى دمشق وجد وكيل الخزانة قد بنى له دارًا فغضب عليه، وقال: «إنا لم نخلق للمقام في دمشق ولا بغيرها، وإنما خلقنا للجهاد».

* ويحلو الحديث عن الناصر صلاح الدين محرر الأقصى من الصليبيين:

ولد السلطان يوسف بن أيوب سنة ٥٣٢هـ بقلعة تكريت في العراق، وكان والده أيوب بن شادي واليًا عليها، ثم انتقل الوالد إلى الموصل ومعه أخوه أسد الدين شيركوه، ثم إلى الشام متوليًّا لقلعة بعلبك، وانتقل الابن معه، وبدأ نور الدين يقدم الابن، ويوكل إليه بعض الوظائف المهمة إلى أن انتدب لمرافقة عمه أسد الدين في الحملة التي وجهت إلى مصر، وبعد وفاة عمه تسلم منصبه وهو الوزارة في نهاية الدولة العبيدية، ثم صار إلى ما صار إليه من توحيد بلاد الشام ومصر والجزيرة تحت قيادته ومجاهدته للصليبيين وفتح بيت المقدس، توفي سنة ٥٨٩هـ، يقول قاضيه ابن شداد تعليقًا على وفاته: «وتاللَّه لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم

(١) «الروضتين» (٢/٤٨).
(٢) «الروضتين» (٢/١٩٦).

فكنت أحمل ذلك على ضرب من التجوز والترخص إلى ذلك اليوم فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قُبِل الفداء لفداه بالنفس»[١].

قال ابن شداد: ولم يخلف السلطان أموالاً ولا أملاكًا لجوده وكرمه وإحسانه إلى أمرائه وغيرهم حتى إلى أعدائه، ولم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهمًا ودينارًا واحدًا، وكان متقللاً في ملبسه ومأكله ومركبه، ولا يلبس إلا ما يحل له وتطيب به نفسه، مواظبًا على الصلاة في أوقاتها مع الجماعة، ومواظبًا على سماع الحديث، وقد سمع الحديث وهو بين الصفين، وكانت مجالسه منزهة عن الهزء واللغو يغلظ على الفاجرين ويلين للمؤمنين[٢]. وقد أمر ولده الظاهر وهو بحلب أن يقتل الشهاب السهروردي لما علم عنه من الشعبذة والانحراف عن الدين.

وكان متواضعًا جدًّا، يخرج للقاء من يقدم عليه، ويكارم الناس مكارمة عظيمة، وربما طلب الماء من خدمه فلا يستجاب له، ولا يقول لهم شيئًا.

قال القاضي الفاضل: «وكانت طرحته تداس عند التزاحم عليه لعرض القصص (ما يطلبه الناس) وهو لا يتأثر بذلك، ولقد دخلت بين يديه في يوم ريح مطير، كثير الوحل فنضحت البغلة عليه في الطين، حتى أهلكت جميع ما كان عليه وهو يبتسم[٣].

---

(١) «الروضتين» (٢/ ٢١٣).

(٢) «الروضتين» (٢/ ٢١٧).

(٣) «الروضتين» (٢/ ٢٢٣).

* منزلة العلم والعلماء عنده :

إن الأجواء العلمية التي رسخت في عهد نور الدين ـ رحمه اللَّه ـ استمرت في عهد صلاح الدين، فالسلطان يذهب إلى العلماء ويحضر دروسهم.

❑ ففي سنة ٥٧٢ ذهب إلى الإسكندرية وتردد على الشيخ أبي طاهر السلفي[١] ، ويداوم الحضور عنده لسماع الحديث، وكان القاضي كمال الدين الشهرزوري من كبار العلماء والوزراء في عهد نور الدين، ولما تولى صلاح الدين أقره على ما كان عليه من تعيين القضاة رغم أن كمال الدين ظن أن السلطان سيعزله لما كان بينهما من مخاصمة في عهد نور الدين.

❑ وفي سنة ٥٧٧ عين السلطان ميقاتًا لسماع الأحاديث النبوية، وجمع به أهل العلم والعلماء.

ومن العلماء المقربين من صلاح الدين علي بن إبراهيم بن نجا الدمشقي الحنبلي، وهو الذي كشف مؤامرة العبيديين للانقلاب على صلاح الدين[٢] .

ومنهم نجم الدين الخبوشاني، الفقيه الشافعي، وهو الذي شجع صلاح الدين على إنهاء الدولة العبيدية وقطع الخطبة لهم، بنى له

---

(١) أحمد بن محمد بن سلفة الأصبهاني، ورد بغداد واشتغل على الكيا الهراسي في الفقه، دخل الإسكندرية وأقام بها وكان محدثًا مشهورًا توفي ٥٧٦هـ، انظر ابن خلكان. «وفيات الأعيان» (١/ ١٠٥).

(٢) «البداية» (١٣/ ٣٩).

صلاح الدين مدرسة وفوض تدريسها إليه ومن الفقهاء الأمراء الفقيه عيسى الهكاري «وكان جنديًّا شجاعًا كريمًا، تفقه على الشيخ أبي القاسم البرزي، واتصل بالأمير أسد الدين شيركوه، وكان يخاطب صلاح الدين بما لا يقدر عليه غيره، وتوفي وصلاح الدين محاصر لعكا»(١) وكان إذا زاره عالم اهتم به جدًّا، ولا يتركه حتى يزوده بالمال والأمتعة له ولجيرانه وأقربائه.

إن هذه الانتصارات العظيمة لا تكون إلا بوجود مثل هذا التلاحم والتعاطف بين الأمراء والعلماء.

□قال القاضي ابن شداد: وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة، وكان يفعل ذلك سفرًا وحضرًا(٢) وكان آل المقدسي الذين سكنوا حيّ الصالحية في دمشق أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامة، وأخوه وابن خالهم الحافظ عبدالغني، والشيخ العماد، كانوا لا ينقطعون عن غزاة يخرج فيها صلاح الدين، وقد حضروا معه فتح القدس والسواحل وغيرها(٣).

* وزراؤه وأمراؤه:

إن العلاقة بين الحاكم والمحكوم هي علاقة جدلية كما يقال، فعندما يكون الحاكم صالحًا يحب أهل الدين والخير، يوفقه اللّه سبحانه وتعالى

(١) «الكامل» (١٢/ ٤٢)، «وفيات الأعيان» (٣/ ٤٩٧).
(٢) «الروضتين» (٢/ ٢١٩).
(٣) «البداية والنهاية» (١٣/ ٦٥).

إلى بطانة صالحة من وزراء وأمراء، وهذا ما ينطبق تمامًا على صلاح الدين، فقد وفق إلى وزير صدق وهو القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، وكان ذا رأي سديد وعقل رشيد، معظمًا عند صلاح الدين، يأخذ برأيه ويستشيره في المهمات الكبيرة خاصة، بل يقول العماد الأصفهاني الكاتب عنه: «سلطان مطاع والسلطان له مطيع، وما افتتح السلطان الأقاليم إلا بأقاليد آرابه وآرائه، وكانت كتابته كتائب النصر، وهو صاحب القريحة الوقادة والبصيرة النفاذة»[١] .

وهو الذي كتب لصلاح الدين وهو محاصر لعكا يخوفه من الذنوب، ويحذره من أن يظلم الجنود أحدًا فيكون سببًا للهزيمة يقول: «إن اللَّه تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته أو لا تفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه، والمعاصي في كل مكان بادية والمظالم في كل موضع فاشية، وقد أجرى اللَّه على يد مولانا من فتح المقدس ما يكون له بمشيئة اللَّه حجة في رضاه، ونعوذ باللَّه أن يكون حجة عليه في غضبه»[٢] .

كما وفق صلاح الدين إلى قادة جيوش مخلصين في الجهاد، وربما كان للبيئة الجهادية أثر عليهم، فمن أمرائه عز الدين جورديك وهو من مماليك نور الدين، جمع الديانة والشجاعة[٣] ، وسيف الدين جاولي، وكان شهمًا شجاعًا يرجع إلى دين وعبادة[٤] ، وأبو الهيجاء بن السمين وابن المشطوب، وبهاء الدين قراقوش الذي كان من كتابه وأمرائه، شهمًا

(١) «الروضتين» (٢/ ٢٤١).
(٢) «البداية» (١٢/ ٣٣٩).
(٣) «الكامل» (١١/ ٥٥٧).
(٤) «الكامل» (١١/ ٥٥٨).

شجاعًا، عمّر سور القاهرة، وبنى قلعة الجبل، وكان صلاح الدين قد سلمه عكا فوقع الحصار وهو فيها، وصنع الناس عليه قصصًا غير صحيحة(١) .

* هل تنازل صلاح الدين عن فلسطين؟

رغم تكالب الصليبيين بعد فتح بيت المقدس وأخذهم لعكا، واضطرار صلاح الدين للصلح لمدة ثلاث سنوات، لكنه لم يتنازل عن الأرض لأنها ليست ملكه بل هي للمسلمين، ولقد حاول معه ملك الإنكليز ولكنه أبى أشد الإباء أن يتنازل عن شيء من فلسطين لأعداء اللَّه، والرجال العظام أمثال صلاح الدين ليس من شيمهم التساهل بحقوق المسلمين.

□ كتب له ملك الإنكليز: «إن المسلمين والفرنج قد هلكوا وخربت البلاد، وتلفت الأموال والأرواح، والقدس متعبدنا ما ننزل عنه لو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع الأردن...»، وطبعًا هذه مناورة من ملك الإنكليز، يطلب الكثير ليحصل على ما يستطيع عليه أو على القليل(٢) .

(١) «البداية» (١٣/ ٣٤).

(٢) وقد كان مضطرًا للصلح، ويريد الرجوع إلى بلاده ويقول في رسالة للسلطان: «باللَّه عليك أجب سؤالي في الصلح، فهذا أمر لا بد له من آخر، وقد هلكت بلادي وراء البحر..».

يقول ابن شداد: «فانظر إلى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين تارة، وبالخشونة أخرى، وكان لعنه اللَّه مضطرًا إلى الرواح، وهذا عمله مع اضطراره، واللَّه المسؤول أن يكفي المسلمين مكره...» قلت: وهذا دأب الإنكليز إلى الآن.

وقد أجابه صلاح الدين: «القدس لنا وهو مسرى نبينا فلا يتصور أن ننزل عنه، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي أيضًا لنا في الأصل، واستيلاؤكم كان طارئًا عليها لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت...»[١].

فأرسل ملك الإنكليز: «الذي أطلبه منك أن يكون لنا في قلعة القدس عشرون نفرًا، وأن من سكن من النصارى في البلد لا يُتعرض لهم». فأجابه السلطان: «إن القدس ليس لكم منه حديث سوى الزيارة»[٢]. ألا ما أشبه الليلة بالبارحة، لقد تكالب اليهود في هذا العصر على فلسطين، يؤزهم الغرب الصليبي، ولا يزالون يراوحون ويراوغون ليستفيدوا من الوقت، ويحصلوا على مكاسب جديدة وأصحاب السلام الهزيل ينتظرون الوعود الشيطانية لأن إرادة القتال والجهاد غير واردة عندهم، فهم حريصون على السلام بأي ثمن، ولكن اليهود يريدون الأرض خاصة وقد جاءهم المدد من يهود روسيا[٣].

رحم اللَّه صلاح الدين وأجزل له المثوبة، فقد كان كثير العفو والصفح، يطلق الأسرى من الصليبيين، فيعودوا لقتاله مرة ثانية، مثلما فعل مع باليان بن بارزان، وغير هذا كان أولى، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية. [الأنفال: ٦٧].

(١) «الروضتين» (٢/ ٢٠٠).

(٢) «الروضتين» (٢/ ٢٠٠).

(٣) قام الشعب الفلسطيني في السنوات الأخيرة بواجبه تجاه اليهود، وصمد صمودًا عجيبًا، لكن كل الدول لا تريد حديث الجهاد، ولذلك سيكون الصراع طويلاً مع اليهود، وستكون العاقبة للمسلمين بإذن اللَّه.

* **نور الدين محمود وصلاح الدين من المجددين[1] :**

بعد أن استعرضنا بعض أعمال هذين الملكين المسلمين لا بد أن نقرر هنا أن ما قاما به يعتبر تجديدًا في الإسلام في كثير من النواحي. وإذا كان بعض العلماء قبلهم أو بعدهم يوصف بالتجديد فإنه لم يجدد كل الأمور فالغالب أن الحكم يبقى على ما هو عليه ولكن العالم يعيد للعقيدة صفاءها ويضع الناس على الطريق الصحيح.

❑ ونحن هنا بإزاء تجديد في نواح يمكن إيجازها فيما يلي:

أولاً: الحديث عن الجهاد وممارسته عمليًّا:

من قبل السلطان والوزراء والقواد وكافة الشعب وهذا شيء قد ترك من مدة طويلة، فماتت الأمة واستنامت للأعداء فتسلط عليها الباطنيون من الداخل وبدأ الروم يناوشونها من الخارج، ثم جاء الصليبيون فاحتلوا أراضيها. وقد مر معنا شغف نور الدين وصلاح الدين بالجهاد والاستعداد له من تدريب وآلات عسكرية، وتحصين الحدود والقلاع، وحث الناس عليه وشهود العلماء والوعاظ المعارك معهم، ومعلوم أن الجهاد يوقظ الأمة ويفجر الطاقات، ويعزها بعد ذل، ويكفي للتدليل على ذلك أن صلاح الدين بعد فتح القدس وكل مدن فلسطين دافع عن عكا ستة وثلاثين شهرًا كان يعيش خلالها في خيمة وليس في مقر، ويركب فرسه كل يوم لمناوشة الأعداء.

---

(١) ويُؤخذ عليهما فقط أنهما كانا من الأشاعرة غفر اللَّه لهما... «إن الماء إذا بلغ القلتين لا يحمل الخبث».

ثانيًا: إشاعة روح العدل:

وقد كان الأمراء والوزراء من قبل يتسلطون على الناس في أموالهم وأراضيهم، والملوك يسمحون لهم بذلك إرضاء لهم وحتى تبقى لهم طاعتهم. بينما نرى أنه في عهد نور الدين محمود يتمنى القائد أسد الدين شيركوه أن ينزل عن كل أمواله، ولا يجلس في المحكمة أمام نور الدين.

ثالثًا: عدم التصرف بأموال الدولة:

وهذا شيء يختلف عن كل الدول السابقة، فقد كان نور الدين إذا جاءته هدايا يضعها في خزينة الدولة ولما طلبت زوجته نفقة لم يعطها من خزينة الدولة بل أعطاها من دكاكين له في حمص، وصلاح الدين لم يترك إلا دينارًا وأربعين درهمًا، وهذا شيء لم يسمع به من بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز.

رابعًا: العمل بالسياسة:

كان الأمراء قبلهم وملوك المدن يتحاكمون في بعض أمورهم إلى أعراف سياسية وليس إلى الشرع وبعض الناس لا يذهب إلى القاضي الشرعي بل يذهب إلى الشرطة فتحكم له بمقتضى قوانين عندهم.

❑ يقول المؤرخ أبو شامة: «وكان نور الدين لما صارت له الموصل أمر قائد شرطتها أن لا يعمل شيئًا إلا بالشرع إذا أمره القاضي به، ثم يعقب هذا المؤرخ نقلاً عن القاضي يوسف بن رافع: أن نور الدين كان لا يعمل بالسياسة[1].

---

(١) «الروضتين» (١/ ١٣).

□ ويقول عنه أيضًا: «لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولا مكسًا ولا عشرًا، بل أطلقها ـ رحمه اللَّه ـ»(١) . أي: أنه رفع الظلم عن الناس وفرض أشياء ليست في شرع اللَّه.

خامساً: تقريب العلماء:

وحبهم واستشارتهم وإعطاءهم المكانة اللائقة بهم، وإحياء المدارس والعلم، وحضور السلطان مجالس العلم، بل إن السلطان صلاح الدين يذهب إلى الإسكندرية مصطحبًا معه ولديه علي وعثمان لحضور مجلس الحافظ السلفي.

وترقى العالم كمال الدين الشهرزوري إلى مرتبة الوزارة، ومن مستشاري صلاح الدين العالم الواعظ ابن نجا الحنبلي، ووزيره القاضي الفاضل كان من أكابر الكتاب محبًّا للعلم وأهله»(٢) .



---

(١) «الروضتين» (١/ ٦).

(٢) انظر «أيعيد التاريخ نفسه» لمحمد العبدة ص(٧٩ ـ ٩٩).